منازل أهل العلم

بين البيان والكتمان!

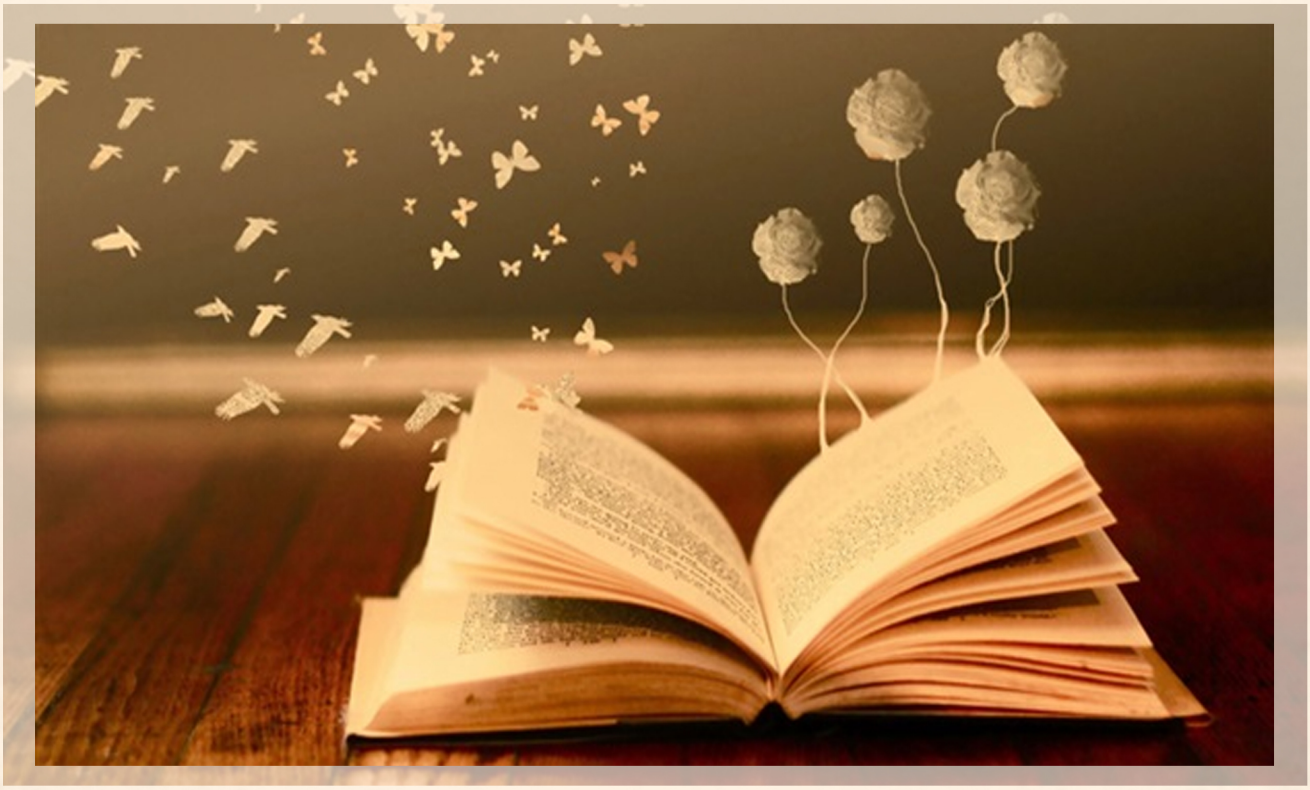

محمود عبدالغني السيد سليمان

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net
شبكة الألوكة

منازل أهل العلم.. بين البيان والكتمان!.

=====

كــرَّم الله، سبحانه وتعالى، **آدم**- على نبينا وعليه الصلاة والسلام- أبـو البشرية جمعاء بأن خلقه بيده!، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته الكرام!.. سجود تحية واكرام وقبول بالقيام على شئونه، وعلَّمه أسماء كل شيء.. وسخَّر، سبحانه، **لآدم** وذريته ما في السماوات والأرض!.. وهو ما لم يحدث لغيره من الخلائق، حتى الملائكة الكرام!.

وميـزّه، سبحانه وتعالى، على غيره من الخلائق جميعًا- كذلك- بأن جعله **وصالحي** ذريته خلفاء في الأرض.. خلفاء يخلف بعضهم بعضًا، وخلفاء يقومون على شريعة الله وهداه أُمناء.. **يحفظونها، ويعملون** بها امتثالًا وحكمًا وقضاءًا بين الناس، **ويبلغونها** للناس.. كل الناس.. **ولا يكتمونها** مقابل ثمن بخس ودنيا فانية، **ويحرسونها** من زيغ المحرفين وأباطيل المبطلين.. **وينشرونها** في الأرض **دعــوة** بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن.. **وينشرونها** في الأرض **جهادًا ورحمة** بالعالمين.. **ويتحملون** في سبيل ذلك الصعاب والمشاق والأذى.. وإن لم يفعلوا ذلك فما بلغوا رسالة ربهم وسيدهم ومليكهم.

ولقد أخذ الله تعالى الميثاق من بني آدم جميعًا- وهم ما زالوا **في عالم الذر** في ظهر أبيهم آدم – على نبينا وعَلَيْهِ الصلاة والسَّلاَمُ – وذلك بأرض عرفات التي باركها الله جلَّ وعلا.. أخذ عليهم العهد والميثاق أنَّه، سبحانه، ربهم وليس معه شريك يتوجهون إليه بعباداتهم، فقال: { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} سورة الأعراف وإنَّ هذا **الميثاق وهذا الإقرار** من القوة بمكان لدرجة أنَّ الله تعالى جعله حجة على عباده يحاججهم به يوم القيامة.. فتوحيد الله تعالى والأخذ بهداه كامن في الفطرة البشرية لا يزيغ عنه إلا من مسخت فطرته، فكان أضل من الأنعام!.

والميثاق: هو العقد المتين المُحكم المؤكدُ بيمين وعهد.. مما يوحي بالثقة والاطمئنان.

ولقد أخذ الله، سبحانه، **العهد والميثاق** على الصالحين المصطفين الأخيار من عباده.. سواء كانوا سادتهم من: **الأنبياء والمرسلين،** أم كانوا من **ورثتهــم** من: **العلماء العاملين**.. أخذ عليهم العهد والميثاق، سبحانه، **أن:**

يعبــدوا الله وحده ولا يشركون به شيئًا- سواء أكان شخصًا!، أو نُصبًا!، أو وثنًا!، أو صنمًا، أو هوى، أو تشريع ما لم يأذن به الله!-.

وأن يتقـــوه، سبحانه، وألا **يطيعــوا** الكافرين والمنافقين.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وأن **يتبعوا** ما أوحى الله به إلى أنبيائه ورسله من هدى.. **فيبلغـوا** دينه وهداه وشرعه والحق الذي أنزله وأمر به..

وأن يبينـوه للناس واضحًا – لا لبس فيه، ودون مداهنة للكفار ولا للمنافقين ولا مجاراة لأهوائهم، على المحجة البيضاء.

وأن يقيمُوه واقعًا في أنفسهم، وفي دنيا الناس.

وَألا يَتَفَرَّقُوا فِيهِ..

وأن يصـبروا على ذلك **ويتحملـوا** من أجله أذى المكذبين– الجاهلين– وأذى المفسدين والمنافقين– المنتفعين بالضلال والفساد**!**.

بل.. **ويجاهـدوا**– في سبيل الله– **لحمـاية** ذلك الهدى **ونشـره** واضحًا جليًا– لا لبس فيه، على المحجة البيضاء– هم ومن يقتدي بهم من المؤمنين..

وإنَّ الله، سبحانه، سائلهم– جميعًا– عَنْ صِدْقِهِمْ ومجازيهم عليه، ومُعذب الْكَافِرِينَ **الصرحاء،** والْمُنَافِقِينَ **الأخفياء..** المفسدين– جميعًا– والله لا يحب الفساد ولا المفسدين.

وقد وعد الله تعالى أنبياءه ورسله، وورثتهم من العلماء العاملين إن هم أدوا ما أمرهم الله تعالى به ووفوا ما عاهدوا الله عليه – **ووثقوا ذلك**– وعدهم، سبحانه، **بالنصر** في الدنيا وفي الآخرة، **وبجنات** النعيم المقيم والدرجات العلا فيها **والقرب** من رب العالمين، هذا الجزاء فوق جزاء عامة المؤمنين.. جزاء جميل صنعيهم وقيامهم **بحق** عبوديتهم لمولاهم وسيدهم، سبحانه.

وميثاق الله سبحانه وتعالى الذي أخذه على الذين أوتوا الكتاب يشمل بأمرين:

أولهما : بيان ما في كتاب الله من أحكام وأخبار وحق.

وثانيهما : عدم كتمان كل شيء مما في هذا الكتاب .

أمَّا من لم يوفِ بهذا العهد– **الموثق الغليظ**– سواء كان من: **الأنبياء والمرسلين،** أم كان من **ورثتهـم** ممن **حمل العلم** ولم ينتفع به فقد توعده، سبحانه، بالوعيد الشديد.. دنيا وأخرى، قال سبحانه وتعالى لصفيه وحبيبه وخليله وسيد ولد آدم– محمد– صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥)} [الإسراء: ٧٣ – ٧٥] وقال سبحانه: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)} [الحاقة: ٤٤ – ٤٧] وقال سبحانه: { مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٩) } [الأنفال: ٦٧ – ٦٩].

وقال سبحانه وتعالى عن عبده يونس لمَّا ذهب مغاضبًا قومه– بغير إذن من ربه– لعدم استجابتهم لدعوته: [فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ **مُلِيمٌ**} أي مستحق للَّوم.. واللَّوم هو عذل ونبذ الإنسان لعمله عمل لا ينبغي ولا يلبق به، وقال: {**فَنَبَذْنَاهُ** بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ} والنبذ هو الإلقاء والطرح لقلة الاعتداد به، وقال: { فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ **مَكْظُومٌ** } والمكظوم هو من شق عليه غمة وحبس ذلك في نفسه ولم يصرح به، وقال: { وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ **أَبَقَ** إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ **الْمُدْحَضِينَ** (١٤١)} [الصافات: ١٣٩ – ١٤١] **والإباق** لا يكون إلا للعبد الهارب من سيدة، والمدحض هو المنهزم المغلوب قليل الحظّ المنزلق عن السفينة إلى البحر!.

وإذا كان هذا الوعيد وفعله الشديد **بصفوة** خلقه وأنبياءه ورسله! **فكيـــف** بوعيده وفعله **بورثتهم** ممن نالوا حظًا من العلم **فلم ينتفعوا به، وخالفوا أمره، وكتموا بيناته وهداه**، وقالوا على الله غير الحق!، وقالوا– بزعمهم، كما قال أسلافهم: [**سَيُغْفَرُ لَنَا** }!.

إنَّ الذين شرَّفهم الله بوراثة الأنبياء بالعلم النافع، ويسر لهم سبل تعلمه.. من فطنة، وملكة، وسبل، ووسيلة، وشيخ وأستاذ، وكتاب، ونحوه.. واجب عليهم شكر نعمة الله– تلك– بحمل أمانته وبالعمل به وبهدى الله وبيناته وشرعه والحق الذي فيه، وبالاستقامة عليه، وبتعليمه وتبليغه للناس بلاغًا واضحًا لا لبس فيه– دون خوف من ذي سلطان جائر، زائل، ودون طلب دنيا ومال ورئاسة واشارة بالبنان!..– والقيام عليه بين الناس؛ وذلك إعذارًا من الله وإليه، سبحانه، حتى يكون الناس مسؤولين عن هداهم وضلالهم وإيمانهم وكفرهم، بعد انقطاع الحجة بتبليغهم أمانة الله، سبحانه.

وفي مقابل هذا التشريف والتكريم.. توعد الله سبحانه كل واحد من أهل العلم فلم يشكر نعمة ربه، ولم يقم فيه بحقه.. فلم يبلغه– واضحًا جليًّا– وكتمه جراء ثمن قليل!، فقال سبحانه: { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (١٦٢)} [البقرة: ١٥٩ – ١٦٢] وقال جلَّ وعلا: { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥)} [البقرة: ١٧٤، ١٧٥].

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ففي قول الله تعالى { **يَكْتُمُونَ** } التي جاءت بالفعل المضارع الذي يدل على التجدد وأنهم في كل حال وفي كل زمان كاتمون للبينات والهدى.. وذلك الكتمان قد يكون بإلغاء الحفظ والتدريس والتعليم، وقد يكون بإزالته من الكتاب أصلًا – وهو ظاهره، قال تعالى: {.. **وَتُخْفُونَ كَثِيراً** } [الأنعام:٩١] وقد يكون بالتأويلات البعيدة عن مراد الشارع لأنَّ إخفاء المعنى كتمان له،.. فالكتمان ترك إظهار الشيء مع الحاجة إليه، وحصول الداعي إلى إظهاره.

والتعريف في "الناس" للاستغراق.. لأنَّ الله أنزل الشرائع لهدى الناس– كلهم– وهو استغراق عرفي أي الناس المشرع لهم.

واللعن من الله هو الطرد والإبعاد عن الرحمة **مع إذلال وغضب،** وأثره يظهر في الدنيا ببغض الصالحين وأصحاب الفِطر السليمة لهم، ويظهر في الآخرة بحرمانهم من الجنة وبالعذاب المقيم في جهنم.

والتعريف في {اللَّاعِنُونَ} للاستغراق.. وهو استغراق عرفي أي يلعنهم كل لاعن.. فهم يلعنونهم بالعنوان العام أي حين يلعنون كل من كتم آيات الكتاب.

والاشتراء: هو استبدال الشيء بعوض وثمن.

قال ابن عرفة في التفسير: "لا يحل للعالم أن يذكر– للظالم– تأويلًا أو رخصة يتمادى منها إلى المفسدة".

وقد سأل سلطان قرطبة عبد الرحمن بن معاوية الداخل الإمام يحيى بن يحيى الليثي عن يوم أفطره في رمضان عامدًا غلبته الشهوة فباشر بعض جواريه فيه، فأفتاه بأن يصوم ستين يومًا، هذا والفقهاء حاضرون ما اجترأوا على مخالفة يحيى، فلما خرجوا سألوه: لم خصصته بأحد المخيرات، فقال: لو فتحنا له هذا الباب لوطئ كل يوم وأعتق أو أطعم.. فحملته على الأصعب لئلا يعود.

فالعالم إذا عين بشخصه لأن يبلغ علمًا أو يبين شرعًا وجب عليه بيانه، مثل الذين بعثهم رسول الله – صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم– لإبلاغ كتبه أو لدعوة قومهم؛ وإن لم يكن معينًا بشخصه ففيه تفصيل يرجع إليه في مثل كتاب التحرير والتنوير وغيره.

{إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا} استثناء من: {الَّذِينَ يَكْتُمُونَ} أي فهم لا تلحقهم اللعنة،.. وشرط للتوبة أن **يصلحوا** ما كانوا أفسدوا **بإظهار** ما كتموه وأن يبينوه للناس، فلا يكفي اعترافهم وحدهم أو في خلواتهم،.. وإنما زاد بعده: {وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا} لأن شرط كل توبة أن يتدارك التائب ما يمكن تداركه مما أضاعه بفعله الذي تاب عنه.

وفي قوله تعالى بعدها: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (١٦٢)} جاء التعبير عن أصحاب ذلك الكتمان بالذين كفروا، ليحضرهم في الأذهان بأشنع وصف وهو- **الكـفر**- وليتناول الوعيد الذي اشتملت عليه الآية الكريمة كل كافر ولو بغير معصية الكتمان.. ذلك أنهم أغلقوا على أنفسهم ذلك الباب المفتوح، وتركوا الفرصة تفلت، والمهلة تنقضي، وأصروا على الكتمان والكفر والضلال: {.. أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } فهي لعنة مطبقة لا ملجأ منها ولا صدر حنون!.

ولم يذكر السياق لهم عذابًا آخر غير هذه اللعنة المطبقة؛ بل عدَّها عذابًا لا يخفف عنهم، ولا يؤجل موعده ولا يمهلون فيه!، وإنه لعذاب دونه كل عذاب!.. عذاب المطاردة والنبذ والجفوة.. فلا يتلقاهم صدر فيه حنان، ولا عين فيها قبول، ولا لسان فيه تحية.. إنهم ملعونون مطرودون منبوذون من العباد ومن رب العباد في الأرض وفي الملأ الأعلى على السواء.. وهذا هو العذاب الأليم المهين.

فالحق سبحانه وتعالى ينبه المؤمنين بسيدنا محمد- صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم- إلى أن هذا الجزاء من اللعن ليس مقصورًا على من فعل ذلك من أهل الكتاب من قبلنا، وإنما ينسحب ويشمل كل من يكتم ما أنزل الله من البينات من أمتنا كذلك.

فالحق سبحانه وتعالى حين ينزل منهجه للناس يبلغه رسله، ويحمله ورثته من أولي العلم ليبلغوه للناس من بعدهم، فالذين يكتمون ما أنزل الله إنما يصادمون منهج السماء.. ومصادمة منهج السماء من خلق الله لا تتأتى إلا من إنسان يريد أن ينتفع بباطل الحياة، وليأكل حق الناس.. فحين يكتمون ما أنزل الله، فقد أصبحوا عوائق لمنهج الله الذي جاء ليسيطر على حركة الحياة.

وقد انتظم ختام هذه الآية مع مضى في أول السورة من قوله تعالى لبني اسرائيل: { وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢)} [البقرة: ٤٢] فكانت البداية **خاصة** وكان الختم **عامًا** لجميع من كتم، ليكون ما في كتاب الله أمرًا على نحو ما كان أُمر به محمد- صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم- ومن تقدمه من الرسل خلقًا- لينطبق الأمر على الخلق بدءاً وختمًا انطباقًا واحدًا، فعم كل كاتم من الأولين والآخرين.

ولما كان المضارع {.. يَكْتُمُونَ.. } دالاً على التجديد المستمر، وكان الإصرار المتصل بالموت دالاً على سوء الجبلة أسقط فاء السبب إشارة إلى استحقاقهم للخزي في نفس الأمر من غير نظر إلى سبب!.

ولما لعن الله الكاتمين، واستثنى منهم التائبين، ذكر المصرّين معبرًا عن كتمانهم **بالكفـر** لتعم العبارة كل **كفـر**، فقال، سبحانه : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا..} أي بهذا الكتمان وغيره {.. وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ } فيه إشعار بيسر توبة الكافرين **وعسر توبة المنافقين** من حيث صرح بذكر توبة الكاتم وتجاوز في الذكر توبة

الكافر، فكان الذين كفروا يتوبون إلا الأقل، والذين يكتمون يتمادون إلا الأقل!، فلذلك وقع الاستثناء في الكاتم والتخصيص من الكافر.

قال الإمام الرازي :" والآية وإن نزلت في أهل الكتاب- **لكنها عامة في حق كل من كتم شيئًا من باب الدين يجب إظهاره**-، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب".

وخص الله سبحانه وتعالى بالذكر- الأكل في بطونهم- من بين وجوه انتفاعهم بما يأخذونه من مال حرام، للإشعار بسقوط همتهم، ودناءة نفوسهم! حتى إنهم ليخفون ما أمر الله بإظهاره من حقائق وهدايات.. نظير ملء بطونهم!.

وقوله سبحانه وتعالى: { وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ القيامة } أي لا يكلمهم كلامًا تطمئن به نفوسهم، وتنشرح له صدورهم، وإنما يكلمهم بما يخزيهم ويفجعهم بسبب سوء أعمالهم، كقوله سبحانه وتعالى لهم : { اخسئوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ } أو أن نفي تكليمه لهم كنابه عن غضبه عليهم، لأن من عادة الملوك أنهم عند الغضب يعرضون عن المضغوب عليه ولا يكلمونه، كما أنهم عند الرضا يقبلون عليه بالوجه والحديث.

وقوله تعالى: { وَلاَ يُزَكِّيهِمْ } أي ولا يطهرهم من دنس الكفر والذنوب بالمغفرة، من التزكية بمعنى التطهير والإصلاح والثناء.

وقال سبحانه عن بعضهم ممن سبقهم من أسلافهم: { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [آل عمران: ١٨٧، ١٨٨] فهم يحبون الثناء عليهم بأنهم حفظة الشريعة وحراسها والعالمون بتأويلها، وذلك خلاف الواقع؛ وهو إن كان حكاية عن أهل الكتاب لكنه يشمل أولوا العمل من هذه الأمة كذلك- فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وقد ورد في رواية للبخاري – بإسناده – عن ابْنُ عَبَّاسٍ « أن النَّبِيَّ – صلى الله عليه وآله وسحبه وسلم- سَأَلَ اليهود عَنْ شَيْءٍ، فَكَتَمُوهُ إِيَّاهُ، وأخبروه بغيره، فَخَرَجُوا قَدْ أَرَوْهُ أَنْ قَدْ أَخْبَرُوهُ بِمَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ، وَاسْتَحْمَدُوا بِذَلِكَ إِلَيْهِ، وَفَرِحُوا بِمَا أَتَوْا مِنْ كِتْمَانِهِمْ إِيَّاهُ مَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ » وأنه في هذا نزلت هذه الآيات؛ وفي رواية أخرى للبخاري – بإسناده – عن أبي سعيد الخدري: «أَنَّ رِجَالًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وصحبه وَسَلَّمَ- كَانَ إِذَا خَرَجَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وصحبه وَسَلَّمَ- إِلَى الْغَزْوِ وَتَخَلَّفُوا عَنْهُ، وَفَرِحُوا بِمَقْعَدِهِمْ، خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وصحبه وَسَلَّمَ- فَإِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وصحبه وَسَلَّمَ- مِنَ الْغَزْوِ اعْتَذَرُوا إِلَيْهِ وَحَلَفُوا، وَأَحَبُّوا أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا، فَنَزَلَ {لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا} [آل عمران: ١٨٨]».

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولقد ضرب الله لهم المثل بواحد من أسلافهم ممن أخلد للأرض واتبع هواه.. فضل وخاب وخسر وكان- **كالكلب**- في خسته ودوام لهثه!، فقال سبحانه: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨)} [الأعراف: ١٧٥ – ١٧٨] والانسلاخ حقيقته هو: خروج جسد الحيوان من جلده، واللفظ هنا مستعار للانفصال المعنوي!.. وهو عدم التلبس بالشيء وعدم العمل به، ومعناه هنا: التجرد من الغطاء الواقي، والدرع الحامي، بالإقلاع عن العمل بما تقتضيه آيات الله، والخلود للأرض واتباعه لهواه.. فغوي وهويَّ! بعدما كان مؤهلًا للرفعة والسمو والكمال! فأتبعه الشيطان الرجيم خطواته.. فتبع- هو- الشيطان، أو جُعل – هو- إمامًا للشيطان.. فيتَّبعه الشيطان، لعنهم الله جميعًا.. وأصبح في خسته- كالكلب **اللاهث** المضطرب في كل وادٍ وحال – وراء أعراض هذه الحياة الدنيا-! ولو ظهر للناس أنه في ثوب إنسي ساكن!.

وفي قول الله تعالى: { سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ } **والظلم** هنا على حقيقته فإنَّهم – ما ظلموا إلا أنفسهم – بما **أحلــوه** بها من المكفرات، والتي جعلتهم مذمومين في الدنيا ومعذبين في الآخرة.

وضرب سبحانه وتعالى- كذلك- مثل الذين شرفوا بحمل كتاب الله- **التوراة**- ولم يقوموا بحقها كمثل الحمار!، فقال: { مَثَلُ الذين حُمِّلُواْ التوراة ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ القوم الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِ الله والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين } سورة الجمعة قال القرطبي : وفى هذا المثل تنبيه من الله سبحانه وتعالى لمن حمل الكتاب.. أن يتعلم معانيه، ويعمل بما فيه، لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء اليهود.

وقد شبههم، سبحانه، **بالحمار** الذى هو مثل في البلادة والغباء، لزيادة التشنيع عليهم، والتقبيح لحالهم.. حيث زهدوا وأعرضوا عن الانتفاع بأثمن شيء نافع – وهو كتاب الله – كما هو شأن الحمار الذى لا يفرق فيما يحمله على ظهره بين الشيء النافع والشيء الضار.

وإنَّ المسلمون الذين يقرأون القرآن والكتب المنزلة من عند الله، وهم لا ينهضون بما فيها.. أولئك كلهم، كالحمار يحمل أسفارًا.. وهم كثيرون كثيرون! فليست المسألة كتب تحمل وتدرس.. إنما هي مسألة فقه وعمل بما في الكتب.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

وهـؤلاء هـم أخوف ما خاف النبي – صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم– على أمته منه!، كما في الحديث: « **أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الْأَئِمَّةُ الْمُضِلُّونَ** »[1] بل هـم شرٌ على الناس من الدَّجَّال الكذاب الأشر!، كما في الحديث : « **غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُ عَلَى أُمَّتِي مِنْ الدَّجَّالِ، الأَئِمَّةُ الْمُضِلّونَ!** »[2].

---

١ – السلسلة الصحيحة

٢– السلسلة الصحيحة

المراجع:

١– أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن؛ للشيخ/ محمد الأمين الشنقيطي

٢– التحرير والتنوير؛ للعلامة/ محمد الطاهر ابن عاشور

٣– التفسير الكبير ومفاتيح الغيب؛ للإمام / أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي

٤– التفسير الوسيط؛ للشيخ/ محمد سيد طنطاوي

٥– تفسير الشعراوي؛ للشيخ/ محمد متولي الشعراوي

٦– تفسير العثيمين؛ للعلامة/ محمد بن صالح العثيمين

٧– الجامع لأحكام القرآن؛ للعلامة/ أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي

٨– في ظلال القرآن؛ للأستاذ/ سيد قطب

٩– فتح القدير؛ للعلامة/ محمد بن علي الشوكاني

١٠– نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: للإمام/ برهان الدين العكبري

١١– تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان؛ للعلامة/ عبد الرحمن السعدي.

شبكة الألوكة - قسم الكتب